صور من العصر العباسي :

الخلفاء العباسيون والتجسس

للاستاذ صلاح الدين المنجد

— ٢ —

وثمة خليفة آخر أولع ببث العيون ، وتسقط الأخبار ، حتى على وزرائه وخاصته ، وهو المعتضد . وقد أورد التنوخي قصة تدل على مبلغ شغف هذا الخليفة بالتجسس ، ومهارة المتجسسين في ذلك العصر . فقد كان القاسم وزيره يحب الشرب واللعب ، ويخاف أن يتصل بالخليفة خبره فيستنقصه وينسبه إلى الصبوة والتهتك والتشاغل في اللذات عن الأعمال . وكان لا يشرب إلا على أخفى وأستر ما يكون . فخلا يوماً مع جوارٍ مغنيات ، وابسن من ثيابهن المصبّغات ، وأحضر فواكه كثيرة وشرب ولعب من نصف النهار إلى نصف الليلة الأخرى ، ونام بقية الليلة ، وبكر إلى المعتضد للخدمة على رسمه ، فما أنكر شيئاً . وبكر في اليوم الثاني ، فحين وقعت عين المعتضد عليه قال له : يا قاسم ، ما كان عليك لو دعوتنا إلى خلوتك وألبستنا ممك من ثيابك المصبّغات ؟ فقبّل الأرض وروى عن الصدق ، وأظهر الشكر على هذا التبسط ، وخرج وقد كاد يتلف غماً لوقوف المعتضد على هذا القدر من أمره ، وكيف لا تخفى عليه مواقفه . فجاء إلى داره كئيباً ، وكان له في داره صاحب خبر يُقال له خالد يرفع له أمورها ، فأحضره وعرّفه بما جرى بينه وبين المعتضد ، وقال له : إن بحثتَ لي عمن أخرج هذا الخبر زدتُ في رزقك وأجزتك كذا ، وإن لم تعرفه نفيتُك إلى عُمان ، وحلف له على الأمرين . فخرج صاحب خبره من حضرته متحيراً كئيباً لا يدري ما يعمل ، وأخذ يفكر ويحتال ويجتهد . قال صاحب الخبر : فلما كان من الغد بكرتُ إلى دار القاسم زيادة تبكير على ما جرى به رسمي لفرط سهري وقلق تلك الليلة ومحبتي للبحث ، فجئتُ ولم يُفتح باب دار القاسم بعد . فجلست . فإذا برجل يزحف في ثياب المكدين ومعه مخلاة كما يكون مع المكدين . فلما جاء

يتكلمون ، فتفكر تفكيراً غير آدمي ، وتكلم كلاماً ليس بإنساني ، فهو شاعر رمزي ، وإن في الرمزية متسعاً لجميع الأغبياء والأدعياء . وإذا شكا القراء أنهم لا يفهمون هذا الأدب الرمزي ، فالقراء جاهلون رجعيون جامدون !

لا — يا سادة — إن الأدب امتُهن وابتُذل ، فلن أتكلم في الأدب !

أفأتكلم في السياسة ؟ إن السياسة في بلدنا أن ينتقد الرجل قوانين الحكومة ، ويتكلم في رجالها ، ويتهم كل أمين يكرهه بالسرقة ، ويصف كل سارق يحبه بالأمانة ، ويكون له رأي في الملك عبد الله ، وابن السعود ، وانكلي ، ومولوتوف ، وترومان ، ويرسم أحسن الخطط لمحاربة النلاء ، وتنظيم ملاكات الموظفين ، وحل مشكلة فلسطين ، وإدارة ألمانيا المحتلة ، ويقترح وجوه الإصلاح للجامعة العربية ، وهيئة الأمم المتحدة ، ولو كان تاجراً أمياً ، أو سائق ترام ، أو شيخ ضيعة ، يضع بصمة إبهامه مكان التوقيع على دفاتر الانتخابات !

لا... لن أتكلم في السياسة ، أفأتحدث إليكم في الفلسفة ؟ لقد اشتغلت بها حيناً ، وأنا أستطيع أن أتفلسف متى أردت ، ولا يكافئني ذلك إلا أن أقول ما لا أفهمه أنا ولا القراء ، وأن أنظر كل ما تواضع عليه الناس من أفكار وعادات ، فأقيم لهم أدلة غامضة لا تدرك ، على أنه خطأ وأن الصواب هو عكسه !

وبعد — يا أيها السادة — فاعلموا أن وقت حديثي قد انتهى ، وأني قد خدعت القائمين على المحطة ، فأطعمتهم وكلت العلبة ربع ساعة ، وقبضت الأجرة ، ولم أقل شيئاً . وكذلك يكون الرجل الناجح في هذه الأيام ، يأخذ الأجرة من غير عمل ، ولنا في ساداتنا العلماء الأعلام مدرسي دائرة الفتوى قدوة غير حسنة ...

هذا ، وأنا لا أدري هل يدفعون لي أجرة ، أم أنهم سيكتفون بشكري الجزيل ... فإذا أعطونا شيئاً ربحناه ، وإلا فحسبنا أننا لم نعطهم شيئاً نندم عليه !

ولا تعجبوا — يا سادة — فكل الناس تاجر يعرض بضاعته ، ونحن معشر الأدباء بضاعتنا الكلام ، وكل كلام له ثمن ، فهاتوا كثيراً تسمعوا جيداً ، وإلا فالبضاعة كلها من هذا النوع !

(دمشق) علي الطنطاوي

إلى الباب جاس حتى فُتح ، فسابقنى إلى الدخول ، فأولع به البوابون وقالوا : أى شىء خبرك يا فلان ؟ وصفعوه فازحمهم وطايبهم وشتمهم وشتموه ، وجلس فى الدهليز فقال : الوزير يركب اليوم ؟ قالوا : نعم ... الساعة يركب . قال : وأى وقت نام البارحة ؟ قالوا : وقتَ كذا . فلما رأيتُه يسألُ عن هذا خمّنتُ أنه صاحب خبر ، فأصغيتُ إليه ، ولم أرهم يحفلون بأمره . وهو لم يدع بواباً ممن وصل إلى الوزير وممن لم يصل إلا سأله عنه ، وكان يبدأه بأحاديث أُخر على سبيل الفضول ، ثم زحف فدخل إلى جنب أصحاب الستور ، فأخذ معهم فى مثل ذلك ، وأخذوا معه فى مثله . ثم زحف فدخل إلى دار العامة . فقلتُ لأصحاب الستور : من هذا ؟ قالوا : رجل زَمِنٌ فقير أبله طيب النفس ، يدخل الدار ، ويتطايب ، فيَهب له الغلمان والمتصرفون . فتبعتُه إلى أن دخل المطبخ فسأل عما أكل الوزير ، ومنْ كان معه على المائدة ، وفى أى شىء أفاضوا ، والطباخ وغلمان صاحب المائدة كل واحد يخبره بشىء ، ثم خرج يزحف حتى دخل حجرة الشراب ، فلم يزل يبحث عن كل شىء ، ثم خرج إلى خزانة الكسوة ، فكانت حالته وصورته هذه . ثم جاء إلى مجلس الكتاب فى الديوان ، فأقبل يسمع ما يجرى ، ويسأل الصبى بعد الصبى ، والحدث بعد الحدث ، عن الشىء بعد الشىء ، ويخلط الجد بالمزاح والتطايب بكلامه والأخبار تنجرّ إليه ، وتتساقط عليه ، والقطع تجيئه وهو يملأ تلك المخلاة ، فلما فرغ من هذا أقبل راجعاً . فلما بلغ الباب تبعتُه ، فرجع حتى جاء إلى موضع من الخلد فدخل إليه ، فوقفت أنتظره ، فإذا هو بعد ساعة قد خرج بثياب حِسانٍ ماشياً ... فتبعتُه حتى جاء إلى دارٍ قرب دار الخادم الموكل بحفظ دار ابن طاهر فدخلها ، فسألت عنها ، فقالوا : هذه دار فلان الهاشمى ، رجل متجمّل . فرصدته إلى وقت المغرب ، فجاء خادم من دار ابن طاهر فدق الباب ، فكلمه من خوخة له ، فصاح به ، ورمى إليه برقعة لطيفة ، فأخذها الخادم وانصرف . فبكرت من سحر إلى الدار التى فى الخلد ، ومعى غلمان ، فإذا أنا بالرجل قد جاء بزيه الذى دخل به داره ، فكبستُه فى الموضع ، فإذا هو قد نزع تلك الثياب ولبس ثياب المكدين التى رأيتها عليه أولا ، فحملته وغطيت وجهه وكتمتُ أمره حتى أدخلته دار القاسم ودخلتُ إليه وقصصتُ عليه الخبر . فاستدعاه وقال : لتصدقنّى عن أمرك أو لا ترى ضوء الدنيا ولا تخرج من هذه الحجرة . قال : تؤمننى ؟ قال : أنت آمن . فنهض وقال :

« أنا فلان بن فلان الهاشمى ، رجل متجمّل ، وأنا أُخبّر عليك للمعتضد منذ كذا ... ويُجرى علىّ المعتضد خمسين ديناراً فى الشهر ، أخرج كل يوم بالزى الذى لا ينكره جيرانى ، فأدخل داراً فى الخلد بيدى منها بيت بأجرة ، فيظن أهلها أنى منهم ، ولا ينكرونى لزيى ، فأخرج هناك بهذه الثياب وأتزامن من الموضع ، وألبس لحية فوق لحيتى مخالفة للونى ، حتى لا يعرفنى من يلقانى فى الطريق ، وأمشى زحفاً إلى دارك ، فأعمل جميع ما عرفت ، وأتقنى أخبارك من غلمانك ، وهم لا يعرفون غرضى ، ويُخرجون لى بالاسترسال ما لو بُذل لهم فيه من الأموال الكثير لم يُظهروه ، ثم أخرج إلى موضع من الخلد فأغيّر ثيابى ، وأعطى ما اجتمع معى فى المخلاة للمكدين ، وألبس ثيابى الحسان ، وأعود إلى منزلى ، فإذا كان المساء جاءنى خادم من خدم ابن طاهر مندوب لهذا ، فأرمى إليه برقعة فيها خبر ذلك اليوم ولا أفتح له باباً ، فإذا كان آخر الشهر جاءنى فأعطيته الرقعة ويعطينى الجائزة ... ! »

قال صاحب الخبر : فحبسه القاسم أياماً فحسبه أهله أنه مات ، فأقاموا عليه المآتم ، فدخل القاسم على المعتضد فقال له : ابراهيم الهاشمى النزاى ، بحياتى أطلقه وأحسن إليه ... وأنتَ آمن من بعدها من أن أنصب عليك صاحب خبر

فتركه القاسم ، وانقطعت أخباره عن المعتضد[1]

فهذه قصة رائعة طريفة تدلك على مبلغ حب المعتضد تسقط الأخبار ، ومبلغ مهارة أهل ذلك العصر فى الحيلة والبراعة فى التجسس ، وهى قصة لا تحتاج إلى تعليق ، فما قرأت فى بابها فى كتبنا القديمة أشوق منها ولا أحلى

ومن هذه القصة ، ومن الأخبار التى سردتها لك فى العدد الماضى — من قبل — ترى ما كان للتجسس من شأن عند الخلفاء العباسيين . أما عناية الوزراء بالتجسس وتحسس الأخبار فسأبينه فى مقال آت

جديدا (لبنان) صلاح الدين المنجد

(١) انظر الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٩٣ وما بعدها